د. هيفاء بيطار

مرآة الروح



قصص

المحتويات

إلى أختي سلمى...

مرآة روحي

هيفـــاء

فـريــد

لم يتردد فريد في الصعود إلى الباص رغم تحذير السائق ومعاونه للركاب بأن ثمة خطورة في السَفَر، لأن الثلج الذي تساقط طوال الليل في حمص وجوارها قد قطع الطريق، وبأنهم ينتظرون جواباً قاطعاً من الأرصاد الجوية. قدّم فريد بطاقة السفر وهويته للموظف الذي رمقه بنظرة تعجب قائلاً: يبدو أن سَفرك ضروريٌّ جداً يا عم!

ابتسم فريد وهو يهز رأسه موافقاً، ومشى بخطواته البطيئة إلى مقعده، فكّر ماذا لو يعرف هذا الشاب أنني أسافر لسبب وحيد هو البحث عن دفء إنساني، وبأنه ليس لديه أي سبب للسفر سوى أمله أن يلتقي صديقاً أو إنساناً مثله يبحث عن علاج لسرطان الوحدة.

جاء جواب الأرصاد الجوية، بأن الطريق سالك بصعوبة، وثمة خطورة في الرحلة، لكن الباص سينطلق في كل الأحوال... تأمل فريد الوجوه القلقة للمسافرين وتراجع معظمهم عن السفر، استعادوا ثمن بطاقاتهم، معهم حق، السفر في هذا الطقس مغامرة خطيرة، لكنه لن يتراجع، يستحيل أن يعود إلى البيت، حيث يذكره كل ركنٍ فيه كم هو مخذول ووحيد... شعر فريد بفرحٍ عظيم حين انطلق الباص، ياه سيتمكن من الهروب من وحدته لساعات طويلة باحثاً عن صديق قد يلتقيه في الرحلة.

تقاعد فريد منذ خمس سنوات، ورغم تصوره المسبق لتلك المرحلة، ومعاينته لحياة المتقاعدين، إلا أنه لم يتوقع أن مرحلة التقاعد مبطنة بآلام نفسية لا تحتمل حتى أنه سماها بسره مرحلة الذل.

ساعدته حركة الباص البطيئة على الاسترخاء، أغمض عينيه، مستمتعاً بصوت كاظم الساهر يغني أشعار نزار قباني، حرك فيه الصوت أشجاناً، وانفلتت صورٌ من حياته في ذاكرته. منذ تقاعده، لا يمر يوم إلا وانتقادات زوجته تنهال عليه كيف تدخل المطبخ، ألا ترى الأرض مبتلة، فقد مسحتُ البلاط للتو، وتتأفف مرددة العبارة نفسها، بأن جلوس الرجل في البيت ثقيل ومزعج.

حتى ابنه الوحيد خذله، يعجز فريد عن الربط بين الطفل المرح المبتسم والمولع بوالده، وبين الشاب الذي صاره، شاب غاضب على حدود الانفجار، ناقم، وحاقد على الظروف وعلى الدنيا كلها، وعلى والديه اللذين أنجباه إلى دنيا الشقاء.

مسكين ابنه، مساكين كل هؤلاء الشباب المحبطون، لم يكن فريد يعاتب ابنه أبداً على جفائه وقسوة ألفاظه حين يتحدث إلى والده... كان يتألم لظروفه حقاً، فقد تخرّج من الأكاديمية البحرية بعد دراسة لخمس سنوات كلّفت فريد الكثير من المال، بل لقد دفع كل مدخراته من أجل دراسة ابنه، لكن الشاب فوجئ أن الشهادة غير معترف بها، فأخذت تنتابه نوبٌ من جنون الغضب، ويتفوه بأبشع الشتائم غير مبال بوجود أب مذعور يحدق بابنه بألم غير مصدق ما يسمع.

حاول فريد أن يبث شيئاً من الأمل في نفس الشاب، لكنه كان يخرج مجروحاً وخائباً في كل مرة يتحدث إليه، خاصة حين يختم الحوار صراخُ الشاب المحدق بقسوة بوالده: لماذا أنجبت أولاداً في بلد يتلذذ بتدمير أولاده، أي ذلٍ هذا، أحصل على شهادة تكلف الكثير، ثم يقولون إنه غير معترف بها.

هجّ ابنه من البلد بعد معاناة شرسة مع ذل البطالة، ألقى نفسه في المجهول تاركاً أباً مشلولاً بالألم، عاجزاً عن فعل شيء، بل صارت كل عبارة يتفوه بها فريد تثير السخرية والسخط عند ابنه. حتى زوجته خذلته حين قررت بعد سفر ابنها أن تنتقل للعيش مع ابنتها في دبي لتساعدها في تربية الأولاد.

اعتنِ بنفسك! صار اهتمامهم به يقتصر على اتصالات تزداد تباعداً يوصونه فيها أن يعتنِ بنفسه.

متربعاً كملك على عرش وحدته، مجروحاً في عمق كيانه، مكابراً، صابراً وصامتاً، صار فريد يجرجر أيامه، مذهولاً من قسوة البشر، وعاجزاً عن الاعتراض والشكوى، لمن يعترض؟ ولمن يشكو! فأكثر الطعنات ألماً تأتينا من الأحباء.

يوماً بعد يوم يشعر فريد كيف تحوّل عيشه إلى إحساس دائم بالمرارة، وكيف صار كل صباح يحاذر أن ينظر إلى وجهه في المرآة، لأن مقدار الأسى والمرارة المرتشحين في ملامحه يفوق قدرته على الاحتمال.

لم يكن يملك سوى أسئلة تزيد من ألمه: ترى ألا يشعر هؤلاء الذين يدّعون حبه كم يجرحونه... ألا يدركون بأن الطريقة التي

يعاملونه بها تشعره كما لو أن حياته قد أنجزت، كما ينجز رسام لوحته!

لماذا يتأففون من تصرفاته، وكلماته، ويشعرونه أنه عبء ثقيل، وإذا فقد قدرته على تحمل فظاظتهم وغضبهم، وسمح لنفسه بتأنيبهم، يشعرونه بالعار، إذ كيف لا يزال رجل يقترب من عقده السابع يغضب ويشتم هكذا! ينظرون إليه بعتبٍ وبرود نظرة تعني: يجب أن تختبئ في رصانة سنواتك.

مع الوقت، وجَدَ فريد نفسه متمادياً في وحدته، كما لو أن وحدته غازٌ يتمدد في داخله أكثر فأكثر، حتى زملاؤه في العمل الذين كانوا يرحبون به حين يزورهم صاروا يتهربون منه، ويدّعون انشغالاتهم الكثيرة، وحده يعرف أن لا عمل لهم سوى الثرثرة، تخلوا عن المظهر الوحيد الذي يشعره بدفء العِشرة والزمالة تقديم فنجان قهوة.

كفّ عن زيارة زملائه في العمل، وحاول أن يُقحم نفسه في عادات التقاعد، لم يطق الجلوس في المقاهي لأنه لم يتحمل سحب دخان الأركيلة، وجعير المذياع وعرف بحدسٍ مؤكد أنه لن يتمكن من اقتناص صديق من هذه المقاهي المسعورة – كما سماها – .

متعته الوحيدة المتبقية، هي المشي، يمشي كل يوم لساعة أو أكثر مستعيداً على مهل مراحل من حياته، منتهياً كل مرة بما آلت إليه حياته، يستعيد أصوات زوجته وابنه شاعراً أن أصواتهم متسلطة عليه، ليس فيها دفء ولا رحمة ولا مودة.

كلماتهم أشبه بالسياط تنهال عليه، يقاوم دموعه، وخيالاته تسرح في زمن بعيد حين كان الكلام أشبه بزهر الياسمين، لم يفهم لماذا يحلو له تشبيه الكلام العذب الدافئ بزهر الياسمين.

لم يقرر أبداً أنه سينجر إلى عادة السفر من محافظة إلى محافظة ومن مدينة إلى مدينة بحثاً عن صديق يحتمل أن يلقاه في الباص أو في استراحة المسافرين.

صدفة وجد نفسه ذات صباح – وأثناء إحدى رحلات تسكعه – يقف وراء طابور من المسافرين إلى دمشق، اشترى بطاقة، وصعد إلى الباص، جلس وسط خمسة وأربعين راكباً شاعراً بمتعة لا توصف بأنه محاط بهذا الدفء البشري، أخذ يتأمل الوجوه خلسةً، يبتسم لها ويتمتع بتنوع تعابيرها. وفي استراحة المسافرين تبادل أحاديث عابرة مع رفاقه في السفر، ثم وصل دمشق، تسكع لساعة في شوارعها اشترى أشياء لا تلزمه، ثم عاد إلى اللاذقية ممتناً لذلك الإلهام الذي قاده إلى السفر.

كان يشعر كيف يمنحه دفء الحديث أماناً وقوة، متنبهاً أن الغرباء يبوحون لبعضهم بالأسرار بثقة، ربما لتأكدهم أنهم لن يلتقوا مرة ثانية.

تحوّل السفر إلى عادة عند فريد، يسافر مرة في الأسبوع إلى دمشق أو حمص ويعود متعباً إلى بيته لكن سعيداً، أنه تحايل على وحدته، وأدخل شيئاً من الدفء إلى روحه المتيبسة من غياب الحب.

كم تأمل العلاقات بين البشر، كيف تتصلب القلوب وتتحجر، يحس بالخزي والألم كيف ضمرت مشاعر ابنه تجاهه، تمر أشهر

ولا يتصل به، وحين يتصل يسأله ببرود كيف صحتك، إياك أن تنسى تناول دواء الضغط.

ذات يوم صرخ والدموع تنهمر في عينيه منحدرة في تجاعيد الخيبات: أنا روح، أنا روح، ولست مجرد جسد.

ضحك ابنه وقال: بابا، ما الذي جرى لك، أخشى أنك صرت رومانسياً.

يتجول فريد في منزله، الذي كان ذات يوم عامراً بالحب والدفء، تركوا له أغراضهم التي لا يريدونها، كم تستثير تلك الأغراض بكاءه، يشعر أنه أحد هذه الأغراض.

فكر فريد كم كان يحب الليل، يجد في هدوئه سحراً، وفي عتمته دفئاً، لكنه صار يخشاه بعد تقاعده، فيشعر أنه يقبر المساءات، وأن كل ليل يمضي يسحب معه شيئاً من ضياء روحه.

وصل الباص إلى استراحة المسافرين في حمص، الثلج يغطي الطريق والجرّافة تعمل بلا كلل، أحس بالبرد يخترق عظامه. ياه أي جنون أن يسافر في هذا الطقس باحثاً عن صديق، متسولاً دفئاً بشرياً صار عملة نادرة في هذا الزمن فكّر أن صقيع العلاقات البشرية يفوق صقيع كانون.

رشف الشاي، محاولاً تدفئة جسده، غمرته شفقة عارمة على نفسه، كان صوت الريح في الخارج يضخم إحساسه بالأسى والمرارة المعششين في روحه، أي ذل أن يضطر كهل وحيد أن يسافر في طقس ثلجي وفي رحلة محفوفة بالمخاطر ليتسوّل عاطفة!

قرّر ألا يكمل سفره إلى دمشق، لأن آلام مفاصله اشتدت عليه

بسبب عضات البرد، سيعود أدراجه إلى اللاذقية، تخيل كيف سيدخل بيته الموحش المعتم، وكيف سيتناول عشاءه البارد وهو واقف في المطبخ، ثم سيندس في فراشه باحثاً عن وضعية أو طريقة لتهدئة ألم الوحدة الذي لا يعادله ألم على الإطلاق.

مسح بظاهر يده دموعه التي انسكبت من عينيه، تنهّد وفمه يرتعش مؤذناً ببكاء... أية مرارة ألا يتمكن أن يتحدث مع أحد حديث روح لروح وقلب لقلب... عدة مليارات من البشر ولا صديق!

وفيما هو يتقدم إلى شباك التذاكر، ليشتري بطاقة العودة، منخمصاً داخل معطفه انتبه لرجل يماثله في العمر ويبتسم له، بادره الرجل بالتحية: حضرتك مسافر إلى اللاذقية.

رد فريد: نعم.

- أتمانع أن أجلس بجوارك، نؤنس بعضنا في الطريق.

تراقص قلب فريد فرحاً ورد بحماسة: على الإطلاق.

شعت ابتسامة الغريب في روح فريد، كشعاع شمس واهٍ يشق غيوم الكآبة الرمادية.

وكضربة سحر تفجّر حديث مفعم بالدفء والعذوبة بين الكهلين. حديث لذيذ حيوي فوق التصور.

ضحك الغريب وقرب فمه من أذن فريد، وقال له: سأعترف لك بسر. ياللحرية التي يعطينا إياها الغرباء.

التمعت عينا فريد بالاهتمام والتشوق لمعرفة السر.

قال الرجل: أتعرف، أنا أسلي نفسي بالسفر من مدينة إلى

مدينة، كي أقتل الوقت وأتحايل على الوحدة قبل أن يقتلاني، أولادي بعيدون، حاولت لسنوات أن أقنع نفسي أن مشاغلهم تمنعهم من الاهتمام بي ولقائي، لكني استسلمت أخيراً، وكما ترى اهتديت لهذه الطريقة...

انفجر فريد بالضحك، فيما دموع التأثر والعرفان تنهمر من عينيه، وبصعوبة تمكن من صياغة عبارته: وأنا مثلك يا أخي، أنا مثلك تماماً، أسافر بحثاً عن صديق...

دعاه فريد إلى بيته، لم يتردد الرجل في قبول الدعوة، أشعل فريد النار في الموقد واتصل بمطعم قريب ليرسل له عشاء فاخراً... ثم أحس بلهفة غير عادية ليرى وجهه في المرآة.

يا للدهشة، حدّق فريد بصورة الرجل المرتسمة في المرآة، وجه يشف عن ابتسامة غريبة، فائقة العذوبة، ابتسامة روح أضناها الحرمان، وعثرت على الكنز المفقود أخيراً، دفء بشري.

إرهابي

تسمّر رفعت مكانه، وقد روّعه ما ارتكبت يداه، كان قلبه يتخبط في صدره كحيوان متألم، تسمّرت عيناه على الضحية، نديم المجنون، كل المدينة تعرف نديم المجنون الذي تنتابه نوب هياج وصراخ اقرب للعواء خاصة بعد منتصف الليل...

تسارعت أنفاس رفعت حتى أحس انه يكاد يختنق، وصار تنفسه اقرب للهاث. لم يجرؤ على الاقتراب من المجنون الذي فقد الوعي وتكوم فوق البلاط كجنين، وقد تفجر الدم من صدغه... لم يجرؤ رفعت على لمس المجنون، بل ظلّ مكانه غير واعٍ سوى لانحطاط روحه...

كان الدم يتدفق غزيراً من صدغ المجنون، ويسيل بخيط عريض على البلاط راسماً خرائط لزجة أحسّها رفعت صورة لحياته المشوّهة بالقهر، تلبّد شعر نديم بالدم الغزير، لكن ظلّ صدره يعلو ويهبط في إيقاع منتظم... أحس رفعت بالراحة لأن المجنون لا يزال حياً، لأنه اعتقد أنه قد يكون فارق الحياة حين ضربه على رأسه بوحشية بالمنفضة النحاسية الثقيلة...

أجبر رفعت ساقيه أن تقتربا من نديم، ركع والدموع تتدفق من عينيه، لم يكن ألمه حقيقياً وعميقاً في قلبه كما هو الآن... نزع ملاءة السرير، وربط رأس الضحية وبيد مرتعشة تمكن من الاتصال بإسعاف المشفى الحكومي...

حضّر السيناريو سلفاً: المجنون خبط رأسه بالجدار، وضرب صدغه بالمنفضة النحاسية، فحدث ما حدث...

فكّر وهو ينتظر سيارة الإسعاف أن ميزة المجانين أنهم يبرؤوننا دوماً، لأن لا أحد يصدقهم...

جلس رفعت بجانب الضحية في الصندوق الخلفي لسيارة الإسعاف، كان نديم الغائب عن الوعي يبتسم ابتسامة عذبة كاشفاً عن أسنان بيضاء منضّدة وعيناه الواسعتان نصف مغمضتين وقد لاح بياضهما كهلال شاحب.

تذكر رفعت أول لقاء له مع المجنون، حين طلبت إليه زميلته في العمل أن يعمل كحارس لابن قريبها المجنون لقاء مبلغ كبير يحتاجه رفعت بشكل إسعافي.

هل يستطيع موظف بائس في البريد، يزن الطرود البريدية ويختمها وراتبه بالكاد يسدّ جوع معدته أن يرفض هذا الإغواء... عليه أن يحرس المجنون كل يوم من الخامسة بعد الظهر وحتى العاشرة مساء... مقابل مبلغ يعادل ثلاثة أضعاف راتبه.

تذكر لقاءه الأول بالشاب المجنون، كيف تدفق الحقد في صدره كنبع مسموم فكّر وهو يتأمل ترف غرفة نديم، أن المجنون ثري وأنه الصحيح الجسم والعقل فقير؟!

بدت له هذه الحقيقة فظة ووقحة ولا يمكن قبولها...

اصطبغت الملاءة البيضاء بالأحمر، وأخذت ترسم سائلاً لزجاً، أحس رفعت بالذعر، ماذا لو مات المجنون ولم يتمكنوا من إنقاذه؟! كيف سيبرر موته لأخته الثرية التي ترسل خادمها كل مساء لينام عند أخيها...

أدخل المجنون إلى غرفة الإسعاف، وبعد فحص رأسه بعناية قال

الطبيب أنه نزف كثيراً، بسبب انقطاع الشريان الصدغي، علقوا في وريد يده كيس دم وأخذوا يخيطون جرح رأسه العميق... لم يستطع رفعت كبح دموعه، انتحى زاوية بعيدة وانفجر ببكاء كالقصف، بكاء أخذ بمجامع روحه...

نقل المجنون إلى غرفة بائسة يشاركه فيها ستة مرضى يتنافسون في الفقر والقذارة، وحين فتح عينيه ابتسم لرفعت ابتسامة واهنة بسبب المُسكنات، وحين همّ أن يرفع يده ليلوح له، سقطت يده على السرير... فكر رفعت أن المجنون لا يعرف الكره أبداً...

خرج رفعت من المستشفى مبلبلاً، ملتاعاً من إحساس العار والندم لما اقترفت يداه، فكر أنها ليست المرة الأولى التي يضرب فيها المجنون، لكن لم يضربه من قبل بهذه الوحشية! لم يستطع أن يدخل بيته، كان يحتاج أن يتعرف إلى نفسه: هل هو مجرم؟

سار في الليل وإيقاع خطواته يطرح السؤال ذاته: هل أنتَ مجرم!

أحس بغرابة هذا السؤال، فهو رجل عادي، لطيف مع الناس، يمارس عمله منذ خمسة عشر عاماً في مؤسسة البريد، الكل يحبه، صحيح أنه من وقت لآخر يتعرض لتعنيف مديره حين لا يدقق في الطرود البريدية، وأنه تعرض مرتين لعقوبة حسم من راتبه، حين قبل أن يرسل كاسيتات دون أن تخضع للرقيب، وحين حاول أن يدافع عن نفسه قائلاً أنها كاسيتات أغان... قال له المدير: كل شيء يجب أن نسمعه حتى الأغاني...

كيف يمكن لرجل عادي موظف محترم أن يكون مجرماً؟!

تهاوى رفعت على مقعد في حديقة عامة، محاولاً الإجابة عن هذا

السؤال، إنه في مأزق حقيقي، إذ بدا له أن الربط بين الشخصيتين مستحيل... أشعل سيجارة وهمس لنفسه وهو يلاحق تبدد الدخان: كدت تقتل الرجل يا رفعت؟ كدت تصير قاتلاً؟! هل أنتَ مجرم؟

ساعدته نسائم الليل الباردة كي يواجه نفسه، من هو؟! أتاه الجواب على شكل إحساس طاغٍ بالمرارة والقهر، فكر أنه لم يعرف البهجة قط في حياته، ولم يدرك كيف أخذت روحه تتغير وتدخل نفقاً مظلماً، فهم الآن لماذا يتخيل دوماً أن روحه كانت من الحرير، ثم صارت من الإسمنت...

في ظلمة الليل أمكنه أن يرى أعماقه بوضوح، وبدت له الساعات الطويلة التي يقضيها في مؤسسة البريد، يزن الطرود ويسمع شتائم الناس عن فحش الأسعار وتذمرهم من الرقابة الشديدة على كل غرض يرسلونه أو يتلقونه، والثرثرة الأبدية لزملائه في العمل حول شح الراتب وأزمة التعليم، وفساد المدراء... وفناجين القهوة والشاي التي يرشفها بلا حساب مع زملائه، والتي سببت له قرحة معدية، بدا له كل هذا الواقع المحبط كحجر أساس لتشييد وجهه الآخر كمجرم...

وظيفة قتلت حيوية روحه، تشعره بالذل وانعدام القيمة، خاصة حين يقبض الراتب الهزيل... في كل مرة يقبض راتبه يتخيل أنه دودة تدب على الأرض.

ولم يكن يملك من وسيلة لتخفيف إحساسه بالقهر سوى انفلات شتائم فاحشة من فمه طوال الوقت، أدهشه الكم الرهيب من الشتائم المقززة التي يعرفها، بل صار يخشى ألا يبقى في قاموسه اللغوي سوى الشتائم، لكنه يعرف بأعماقه أن تلك الشتائم الفظيعة

ليست سوى خدعة رخيصة لتخفيف إحساسه بالقهر.

رجل يكره حياته ويحس أنه لا يساوي شيئاً، عمره يتبدد في رتابة خانقة، رجل يكره الصيف، لأنه يلتقي بزملائه الذين وفقوا بعقود عمل ممتازة في الخارج وأصبحوا أثرياء، كان يتأمل ثراءهم وحيويتهم، وهو يتميز من الغيظ والقهر.

لم يخطر بباله أن المجنون سيكون ساحة لتنفيس أحقاده على زمن ينتهكه ويحقره!

وفي الواقع كان الشاب صعباً دائم الصراخ والطلبات، ويحتاج لجمه لصبر وجلد لكن بدأت قسوة غريبة تولد من نفس رفعت، وأصبح يجد لذة في إهانة المجنون يصفعه بقوة ويصرخ به، فيفقد المجنون صوابه من الغضب والصراخ، فيحس رفعت بالنشوة كونه يذل إنساناً ويتحكم به، كما يذله مديره...

تذكر رفعت بكثير من الخزي يوم رفس المجنون بين فخذيه من دون سبب... فتكوم الأخير على الأرض يئن من الألم... التمعت بذهنه حادثة، في الواقع كان سبب هذه الرفسة الوحشية العقوبة التي ألحقها المدير برفعت حين أرسل الكاسيتات لأحد المواطنين إلى باريس دون أن تخضع للرقابة.

لم يعرف رفعت مقدار القسوة والإحباط في نفسه إلا حين وضعته الحياة في غرفة مع المجنون... كما لو أن حياة المجنون الذاهبة إلى اللا جدوى واللا معنى هي مرآة لحياته التافهة...

أكان عليه أن يتواجد كل يوم لساعات مع مجنون كي يرى الجلاد القابع في أعماقه ينتظر فرصة لينفث سموم أحقاده وعنفه

الوحشي!

تذكر نظرات الحقد الرهيبة التي كان يتأمل فيها المجنون... والأخير يرد على نظراته بضحكات معتوهة.

وحين كان يقبض راتبه من أخت المجنون كان يحس بلذة خبيثة، أنه يقبض ثمن وحشيته مع أخيها، يقبض ثمن نذالته وحقارته، وللحظة يتخيل نفسه المدير الذي يقبض الرشاوى، ثم يصدر عقوبات في حق الموظفين البائسين!

استكان رفعت في حزنه وخزيه، وقد انجلت أمامه حقيقته... أدرك تماماً من هو، أدرك أن وحشيته مع المجنون ليست سوى الدليل الوحيد على انحطاط أخلاق هذا العالم، وليس انحطاط أخلاقه... وأن قسوته الوحشية مع الشاب المسكين دليل على غلاظة قلب العالم وليس على غلاظة قلبه...

لقد عاش عمره وهو يحس يوماً بعد يوم بالقهر والظلم والتهميش... الآن فهم لماذا أصبح وحشاً وشرساً... لقد مسخوا إنسانيته وأجبروه أن يعيش حياة لا معنى لها أجبروه أن يقبل براتب الذل، وأن ينحني وهو يقدم القهوة لمديره المرتشي الثري...

لم ينتبه رفعت أن نوراً أزرق شاحباً أخذ يتسلل مبدداً ظلام الحديقة... نوراً طالعاً من قلبه... عرف أنه سيبدأ رحلة الشفاء من سموم أحقاده. وسيقتل المجرم والإرهابي القابع في أعماقه...

فاض قلبه بالحب للمجنون المسكين، سيكون أمامه الزمن ليشفى، ليغسل قدمي الشاب بدموع الندم.

مجنون لا يعرف الكره.

الخفاش

أنا الوريث الوحيد لعمي العازب الثري، الذي يملك أجمل بيت في المدينة، بيت تتجمع فيه صفات رائعة قلما تجتمع، فهو مرتفع عن مستوى الشارع بأربع درجات فقط، ويطل على شارعين رئيسيين وأمامه حديقة غنّاء، بيت فسيح مؤلف من سبع غرف وصالون فسيح، أبوابه من خشب الزان محفورة بأشكال بديعة ويزيد ارتفاع سقفه عن ستة أمتار.

سجّل عمي البيت باسمي مع الاحتفاظ بحق الانتفاع له مدى الحياة!

حقيقة تبدو بسيطة ومنصفة، وعادية، لكنّها سممت حياتي وحوّلتني إلى وحش آدمي.

لم أرث سوى الذل عن أبي، فقد كان مدمناً على الكحول والقمار، وتوفي إثر نوبة قلبية بعد أن خسر كل أمواله في القمار، وترك أسرة مكونة من زوجة وثلاث فتيات، وأنا كنت في الرابعة من عمري.

كانت أختي الصغرى تكبرني بأربعة عشر عاماً، ولم يقصّر عمي في إعالتنا. وبعد زواج أخوتي ووفاة أمي، اقترح عمي أن أعيش معه في قصره البديع.

في العاشرة من عمري انتقلت إلى بيت عمي، اعتقدت أنه سيكون بمثابة أب لي وأن حميمية قوية ستنشأ بيننا، لكني لم

أفهم سبب هذا الحاجز الدائم بيننا، كما لو أن هناك استحالة أن ينفتح قلبي على قلبه.

كان يهتم بشؤوني، بدراستي، وصداقاتي، وهواياتي، لكني كنتُ أفتقد اللهفة والدفء في صوته، وحين تخرجتُ من الجامعة حاصلاً على شهادة جامعية في التاريخ كان هو على أعتاب الثمانين، أخبرني أنه سجّل البيت باسمي محتفظاً بحق الانتفاع.

بدأت روحي تتسمم حال تخرجي من كلية التاريخ، إذ ليست أمامي أية فرصة للعمل، ليست هناك وظائف، ولو رغبت بالتعليم فسأرمى في قرية بعيدة ويضيع راتبي الزهيد في المواصلات.

بدأ الأصدقاء يهمسون بأذني بأنني أملك ثروة تقدر بالملايين، وبأني أستطيع استثمار بيت عمي، فهو يصلح لمطعم، أو لمحل مفروشات، بل عرض عليّ والد أحد أصدقائي أن يشتريه مني بمبلغ خيالي، ليحوله إلى معرض للسيارات... وعرض علي صديق أن يدخل شريكاً لتحويل البيت إلى مقهى انترنيت.

ياه ألا يعرفون أني لا أملك حرية التصرف بالمنزل طالما عمي على قيد الحياة!

كيف أصف عمي، مهلاً لم أعد قادراً أن أناديه عمي، حتى بيني وبين نفسي، أنا نفسي لا أصدق كم هدرت ساعات طويلة لإقناعه باستثمار البيت، لكنه كان يرفض بتشنج وصلابة ثم هددني بالطرد إن كلمته بهذا الموضوع ثانية.

كان عجوزاً في الثمانين، لا يزيد قطر عالمه عن المتر، على يمينه أدويته التي يتناولها بدقة تامة، وعلى يساره الصحف التي

أدمن على قراءة عناوينها فقط، وأمامه شاشة التلفاز يتابع برامجه السياسية المفضلة.

لم يكن بحاجة لأصدقاء أو أقرباء، لا يتحدث عن ذكريات، أحسه رجلاً بلا ذاكرة ولا عواطف، هل اهترأت ذاكرته وعواطفه بسبب الشيخوخة.

لا يعكس وجهه أية عاطفة، حتى ابتسامته النادرة التي تفتر عن أسنان اصطناعية أشبه بتكشيرة، لم يكن معنياً بزمن ما، لا يسترجع ماضياً ولا ينتظر شيئاً في المستقبل، إنه ينتمي للحظة الراهنة فقط، يعيش متشبثاً بيومه كتشبث الغريق بقشّة...

كنتُ أغلي من الغضب وأنا أتساءل يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة، ترى ألا يرى وضعي البائس وسعيي اللامجدي للحصول على وظيفة، ولم يبال حين قررت السفر إلى السعودية لكني عدتُ بعد عام ونصف وقد فقدت قدرتي على احتمال عيش ذليل إذ كان مدير المدرسة يعاملني كعبدٍ عنده.

حاولت بكل الطرق استمالة عمي العجوز، أن أحرّض قلبه المتيبس أن يلين بالحب والتعاطف معي، ركعت أمامه وقبّلت يديه، بكيت صادقاً وأنا أصف له عهر الزمن وانعدام فرص العمل ورواتب الاحتقار، رجوته أن يسمح لي باستثمار بيته طالما أنه وهبني هذا البيت.

لكن كل محاولاتي فشلت، كان يرفض أن يخرج من بيته، ويرفض كل مشاريعي. وحين اقترحت عليه أن نقسم البيت الكبير شقتين، واحدة له والأخرى استثمرها، نظر إلي حاقداً وقال:

استحِ، أنتَ تستغلني، تريد أن ترثني وأنا حي قلتُ لك هذا البيت لك، إنما لا يحق لك التصرف به إلى أن أموت.

بدا عناد شيخوخته لا يُقهر، ولم انتبه كيف بدأت أتحوّل من شاب مرح لطيف مسكون بالآمال الوردية إلى شخص يائس يزخر رأسه بحقد وكره أبديين، كنتُ أعيش حالة متقدة من الغضب، وغدوت شرساً مع الناس حولي وأصدقائي، وفقدت السيطرة على انفعالاتي، إذ أن أبسط سبب يجعلني أنفجر وأتفوه بكلمات تسبب الألم لمن حولي.

ولم يعد الزمن يعني لي سوى حساب عمر عمي سنة بعد سنة، في البداية احتقرتُ نفسي لأني أنتظر موته، ثم بدأت نوب قلق تنتابني وتوقظني من عز النوم لأتساءل: ما الذي سيميته؟ كيف سيموت؟ إنه يتناول أدويته بانتظام، ويسارع إلى لف عنقه بشال الصوف ما إن يبدأ برد تشرين.

يبدو أن الموت نسيه، بل أحس أن عمره بلا سقف، بلا نهاية...

كنت أقف وراءه دون أن يشعر بوجودي وأتأمله مطولاً كيف يسند قدميه على كرسي صغير أمامه، ويتابع برامجه السياسية المفضّلة.

أحدق به وبراكين الحقد والغضب تغلي في روحي، أشعر وأنا واقف وراءه أني أسبر سنواته التي قاربت التسعين، إنه يوغل في العمر، يبدو عمره كدغلٍ في غابة يستحيل أن اخترقه.

لم أقدّر تماماً أي أذى فظيع يحلّ بروحي وأنا أُراكم مشاعر القهر سنة بعد سنة، مشاعر قهر تتراكم وتتضغط في نفسي

منتظرة لحظة الانفجار، التي أؤجلها، لأن علي الاستمرار بالتظاهر بحبه، وحين كنتُ أقدم له الهدية السنوية في عيد ميلاده وأنا أتمنى له طول العمر، كنت أعي زخم الحقد الأسود المدفون في قلبي وقد نخره الذي يتمنى الموت للعجوز.

ما كان يفجّر غيظي أن غيابه يسجنني أكثر من حضوره، فحين أكون خارج البيت يتكثف إحساسي به، وتفكيري أيضاً، هذا العجوز لا يفارق ذهني، ولم أعد سوى ظل لوجوده، صدى لسعال شيخوخته الصباحي، الذي يوقظني كل يوم، لأبدأ يومي بسيل من الشتائم الفاحشة عليه وعلى الحياة.

لم أعد أتعرّف إلى نفسي، إذ صار الضيق يطوقني دوماً، فإذا تأخر الباص عن موعده لدقائق انفلتّ بغضب كاسح والشتائم تنفلت من فمي بصوتٍ مرتفع غير آبه لنظرات الناس حولي المستنكرة والساخرة.

ثم صرت أقف أمام المرآة أتأمل وجهي الغريب، كما أحسه، وأقوم بحركات عصبية، وأشوّه ملامح وجهي عمداً، كما لو أني اخلق انسجاماً بين روحي المشوهة بالقهر، ووجهي الذي يجب أن يتأقلم معها.

هذا العجوز الموغل في الأنانية يجردني من إنسانيتي رغماً عني ويسيطر عليّ.

ذات يوم وجدتني أدخل بناية مهجورة على الهيكل وأخذت أصرخ بكل جموح روحي، حق الانتفاع الحقير، حق الانتفاع السافل، بدا صوتي أقرب لصوت حيوان متألم، وشعرتُ أن

حنجرتي تتشقق، خرجت من البناء المهجور مهدود القوى مرتعباً من تصرفاتي الغريبة، انهمرت دموعي وأنا أمشي مشية البائس المترنحة وتساءلت: أهي بداية الجنون؟!

لم يفهم أصدقائي لماذا أعلق روزنامتين على الحائط، لم أقل لهما إن واحدة لحساب الزمن، والأخرى لحساب عمر عمي... كل صباح انظر إلى وجهي في المرآة، أبدو مهدود القوى روحياً وجسدياً، شاعراً بالاختناق من الزحام الرهيب للخواطر المبعثرة والأحاسيس المضطربة في نفسي، أفتح باب غرفتي متأملاً أن أراه ساكناً على كرسيه وقد تدلت يداه عن المسندين ومال رأسه لكن ما إن يخرق أذني جعير مذياعه حتى أهوي في قرارة اليأس.

عشرون عاماً وهو يضطهدني ويصلبني بحق الانتفاع... أي حق ظالم هذا؟!

لكن عليّ إنصاف نفسي، فأحياناً أحس بحب كبير صادق له، أتعاطف معه في وحدة شيخوخته، وفرحه بالأشياء البسيطة، كان يحب النمورة يقول إنها حلواه المفضلة، وحين أجلبها له من وقت لآخر، يمد يديه المرتعشتين ويتناول قطعة وهو ينظر إليّ بعينيه الغائرتين الرماديتين...

لستُ وحشاً، فكم أنهكني الندم لأني أتمنى موته، كنتُ أكفر عن خطاياي الذهنية بأن أبالغ بتدليله لأيام، لكن سرعان ما أعود إلى تجهمي وغضبي اللذين صارا طبيعتي.

ياه، كلانا مسكينان، بل ما عدتُ أعرف من يظلم الآخر، ومن ينتهكه...

جريمته ليست أنه لم يسمح لي باستثمار البيت، بل أنه جعل روحي تنحدر إلى الحضيض... لم أعد أحلم بفتاة أحبها وأتزوجها، لم أعد أحلم أن يكون لي أطفال، لقد احتل العجوز عقلي وسيطر على حواسي، ولم يعد يشغلني سوى تفحص وجهه وحالته لأقدّر مدى قربه من الموت... ترى لماذا نسيه الموت؟! هل هناك قدر معاكس لي، بل صار خيالي يعذبني إذ يصورني ميتاً قبله!

أحياناً أحس بنفاذ صبر إذ لا أعود قادراً على احتمال حقيقة أنه حي... وقد يستمر سنواتٍ طويلة حياً لتعذيبي وإماتتي من القهر.

صارت خيالاتي وأفكاري إجرامية، تدور كلها حول أساليب لقتل العجوز عارفاً أني لا أملك الجرأة لتنفيذ أي منها، لكنها كانت تعطيني شيئاً من الانفراج النفسي...

ماذا أفعل وأنا عالق في شرخ شيخوخته، لا أستطيع الفرار، كل وجودي مرهون بلحظة يطلق تلك التنهيدة العميقة وينتهي، ينتهي لأبدأ...

لن يطلع فجري إن لم ينته ليله...

ما أطول ليله، ما أطوله، كما لو أن لا فجر بعده.

أكاد أجن، فقد تحوّلت إلى سؤال: كيف يمكنني احتمال ليل شيخوخته المديد الأبدي؟

سؤال يتفجر من داخلي ومن كل الأشياء حولي...

أتاني صوت ساخر، هبط علي من السقف المرتفع للبيت الذي دمرني لشد ما هوسني امتلاكه... يمكنك احتمال ليل العجوز بأن تتحول إلى خفاش...

اختلج جسدي وهو يستوعب تلك العبارة، يا للحقيقة الكاشفة، ما أنا إلا الرجل الخفاش الذي سفح شبابه، محدقاً ليلة بعد ليلة في الظلام منتظراً نهاية العجوز.

الصامت

من بين مئات الوجوه حولي، أحتاجُ وجهه، لا أفهمُ سرّ تلك الحركة السخيفة التي أقوم بها كلما اشتقتُ إليه، إذ أجدني امسحُ وجهي مراراً براحتيّ، لعلني حين أمسح الغبار عن وجهي، يستيقظ توقي لبهاء وجهه...

إنه أخي البعيد منذ أكثر من عشرين عاماً، أعترف بعجزي عن وصف معنى الغربة، ربما أستطيع أن أصفَ بعض ما فعلته بي، إذ تحوّلتُ إلى فنانة في الانتظار والصبر، فإذا أعلنَ انه سيأتي في الربيع أجدُني مستنفرة ومتحمسّة لاستقباله كما لو أنه سيصل بعد ساعات! علمتني الغربة أن أملأ زمني بحوارات وسيناريوهات لانهائية وهمية بيني وبينه، وجعلتني أقتني دفتراً صغيراً أسجّل فيه الحوادث التي أرغب أن احكيها له، وفي كل مرة حين نلتقي أنسى الدفتر أو أضيّعه!

إنه أخي الوحيد المُتعب كمسيح، حين يحدثني عن متاعبه المزمنة وزواجه الكارثي من امرأة تعبد المال، أنصتُ له، أرسمُ ملامح وجهه بحبر أهدابي المُنداة... أشدُ على سمّاعة الهاتف كما لو أني أشدُ على يده، لا أملك سوى كلامٍ يتسلل إليه عبر سلك بارد ويصله فاتراً، ثم تحل فجوة الصمت...

أفكر أننا – هو وأنا – حين نحسُ بضيق وألم، نخرج إلى الطبيعة هو يركض ساعات في حدائق فيشي، وأنا أمشي في أزقة

اللاذقية، نشعُر في الوقت ذاته أن الهواء حولنا ممتلئ بزخم شوق مضغوط، كما لو أن روحينا تتكثفان في الهواء وتعبران حدوداً وبحاراً... يهدنا الإعياء في الوقت ذاته، أحسه يراني بروحه كيف أجلسُ في مقهى بحري أطلب الأركيلة وعصير الجزر وأرنو إلى البحر حيث يرتسم وجهه على الماء، أتخيله كيف يجلس في ذلك المقهى الذي يحبه في فيشي، ويطلب البيرة وفستق العبيد المحمّص بالزيت، مقهى أنيق على نهر الإليزيه... بيننا أميال لكن الهواء ينقل ذبذبات مشاعرنا وأفكارنا، تدمع عيناه، فأحس بطعم دموعه في حلقي، يتحوّل الهواء حولي إلى راحة من حنان تمسح شعري، وإلا كيف أفسّر تلك النسمة المفاجئة التي تطيّر شعري!

يخجلُ أخي من آلامه، يعتذر عنها كلما حدثني عنها... يتمنى ألا يقلقني ويسبب لي الألم... غربة طويلة طويلة جعلتني أذعن للواقع القاسي، فأجدني مع الوقت أستطيب البعد وأملؤه بحوارات غنية، لدرجة أكاد أصدّق أنها حدثت في الواقع ولا أجد عزاءً لبعده سوى الركض في خيالات الماضي... أتذكر ذلك اليوم البعيد، يوم أصبتُ بألم بطني شديد وأنا في المدرسة، فاتصلت المُدّرسة بأهلي، لم يكن سواه في البيت، أسرع إلى المدرسة ليصطحبني كان في الثامنة من عمره، طفلاً نحيلاً صغير القامة، يومها حضرَ لاهثاً فعرفتُ أنه قطع المسافة ركضاً، وقدّرتُ خطورة عبوره شوارع عريضة تغص بالسيارات، همّت المُدّرسة أن توبخه لأنه حضرَ وحيداً، لكن لهاثه وقطرات العرق على جبينه جعلاها تربتُ بحنان على كتفه... أذكر عينيه السوداوين القلقتين تنظران إليّ بحب لا

محدود... وفي طريق العودة أصرّ أن يحمل حقيبتي الثقيلة، أنا التي أكبره بسنوات، وأميل للامتلاء... أحب أن أستعيد تلك اللقطة دوماً أنا وهو نمشي في شارع الحياة الطويل، يده تمسك يدي بقوة ويده الأخرى تحمل حقيبة همومي الثقيلة... أكانت تلك الحادثة بمثابة نبوءة للمستقبل!

حين نلتقي لأيام قليلة كل سنة، نكتشف كم أن كلامنا قليل، ولا يحملُ خصوصية أو أسراراً، غالباً ما نحكي نكاتاً، وأخباراً عامة لكننا نكتشف كل بطريقته سخف الكلام، لِمَ علينا أن نتكلم كثيراً فوجوده الحقيقي ليس في الغرفة بل في قلبي.

أذكر يوم زرته لأول مرة في فيشي، كنتُ متألمة من حياة قسَت عليّ بوحشية وكانت جراحي طازجة ومؤلمة، كنتُ بحالة غضب عظيم من قساوة الناس وإحساسي الدائم بالظلم، لم يسألني أن أبوح له بما يؤلمني، وأنا لم أكن قادرة على الخوض في أمور لا تزال تدمي قلبي... لكن لا يمكن أن أنسى تلك النزهة الطويلة بمحاذاة نهر الإليزيه كنا قد شربنا قهوة في كازينو فيشي، وأبديت إعجابي أنهم يقدمون لوحاً من الشوكولا المّرة مع القهوة، سألته إن كانت كل المقاهي في فيشي كريمة مثل الكازينو فقال لا، وضحكنا، ثم حلّ الصمت، مشينا بمحاذاة النهر، رغم أن رذاذاً خفيفاً كان يداعب وجهينا... وجدتني أحكي له قصة فيلم سينمائي أعجبني كثيراً، عجبتُ كيف أخذ يرجوني أن أحكي الفيلم بدقة وبالتفصيل دون أن أغفل مشهداً! كان الفيلم بعنوان (قصة امرأة مطلقة) بطولة نجلاء فتحي ومحمود ياسين والقصة تدور حول امرأة

تزوجت رجلاً فظاً وسادياً خُدعت به، ثم انفصلت عنه وعانت ألماً كبيراً وظلماً اجتماعياً، لم أفهم لِمَ اهتم كثيراً لقصة الفيلم، وكيف دفعني لأحكي وأحكي حتى أنهكني الكلام، عرفتُ بعد فترة من الزمن كم كان تواطؤنا جميلاً وخجولاً وقتها، كان يعرف أني أحكي له قصة جرحي، وكنتُ أتقوى باهتمامه وأسئلته عن الفيلم – قصة حياتي المُلتبسة –

أذكر الكلمات الأخيرة وأنا أسرد المشهد الأخير للفيلم، والبطلة تسير في الشارع بمحاذاة نهر النيل، متألمة وحيدة... كانت عتمة الغروب تساعدني كي أموّه مشاعري المرتشحة بالألم، ربتَ على كتفي بحنان، وقال: لا يهمك، تأكدي كل شيء سيكون وراء ظهرك قريباً...

أكنتُ أحتاج أن أموّه قصتي بحكاية فيلم!

أحياناً يأكلني الشوق إليه، فأناديه بصوتٍ مرتفع، بإلحاح وإصرار مستمتعة بصدى صوتي، مشتاقة لاسمه... أتذوق صوتي صارخاً باسمه، تصيبني الغربة المديدة بالذهول، ويوصلني الذهول إلى التواضع، أتذكر بخزي كيف كنتُ اصرخ به غاضبة بأنه رجل مُسالم، لا يعرف كيف يرد الأذى، وبأن ضعفه صفة غير مستحسنة، أنتفخ غروراً أمامه، وأنا أسرد له كل القصص التي انتصرتُ فيها على أعدائي الكثيرين، وكيف رددتُ الصاع صاعين...

أتعالى عليه كأني أقول له: أترى كم أني قوية، ولا أسمح لأحد أن يدوس لي على طرف... كن مثلي...

يغيظني صمته، يتركني أتكلم بتكبّر وعصبية، وعيناه ترنوان إليّ بحبٍ وسلام أصيح غاضبة: ما بك تبتسم هكذا، قل شيئاً... أتعرف لا أفهم تسامحك هذا، إنه ضعف... غريبٌ أمرك، رجل لا يحب الانتقام من ناس آذوه... رجل طيب القلب لدرجة تثير السخرية...

يمتص غضبي ووقاحتي بابتسامة، يحوّل نظره عن وجهي الملتهب بالغضب أحس كيف تعبرُ ملامحه ابتسامة خائبة وفجأة – وكضربة سحر – أجدُني محتواة كلياً في حضوره الحميم المسالم والمرهف، فتذوب صلابتي، وينكمش غروري ويبللني الخجل، أدرك برؤية كاشفة أية قوة روحية عظيمة يمتلكها هذا الصامت... الصمت قوة... الحب القوي هو الحب الصامت... الانتصار الحقيقي هو الترّفع..

أعتذر له بطريقة مواربة، أقول له أنتَ تشبه المسيح، لا يسمح لي أن أعتذر يقول دوماً وبصدق أنه لا يزعل مني... وأنه فخور بي... أقول له: لكن، لو كنتُ مكانك لزعلتُ كثيراً، كيف تسامحني على هذه اللهجة الفظة والقاسية التي أحدثك بها...

يضحك، تشع عيناه السوداوان ببريق السعادة... أجدني مسحورة ببساطته، بنقاء روحه وقلبه الذي لا يعرف سوى الحب، أهم أن أحكي وأحكي، لكني أجدني مأخوذة بصمته، أفكر أنني معذورة، إذ لا يخطر لي وجود بشر على هذه الدرجة من النبل والرقي... يدرك كم ينهشني الندم، يربت على كتفي ويقول ضاحكاً: هيا احكي لي فيلماً سينمائياً، نضحك طويلاً، فيما الدموع تترقرق في أعيننا.

الصغير ينام في سرير إعاقته

لقد أهديتني إعاقتك كي تحميني من أكبر رذيلة: الكبرياء.

وحين أمشي كالطاووس، نافشة رياش أفكاري الثورية، يعبر خيالي طيف جسدك الشبحي الناحل، بمشيتك العرجاء المُتعبة، فألملم نفسي وأمشي باتضاع.

حين أجلس متخمة بإحساسي بذاتي، أبالغ في إرضاء نفسي، منتشية بتدخين الأركيلة وشرب كأس البيرة المثلجة وأكل المازوات اللذيذة، متفننة في تفصيل أثواب مبتكرة لأفكاري كي أنتزع الإعجاب، تطن أذناي بصوتك الحاد أحياناً والواهن أحياناً أخرى، صوت عارٍ من أي زينة، صوت نقي كصوت الريح أو الشلال، صوت صامت كالدمع، يُعيدني صوتك إلى الكلمة الأولى: الحق.

وحين أرسم الخطط للانتقام من أعدائي، ويلتمع وهج الشر في عيني، لأنني أدرك بغرور أني سأنتصر وسأسحقهم، ينحرني خيالك المريض ويصفعني بحقيقتي البشعة، كيف أترك نفسي أنقاد للأحقاد... أفكر أنك تتفوق علي بإعاقتك التي تحميك من سموم الحقد والكره... طيفك البعيد، يجعل أحقادي تترسب في قاع روحي كطبقة من غبار أغسلها بدموعي النادمة التي وحدك تفجرّها من عيني...

وحين يحملني طموحي بعيداً بعيداً، جاعلاً لي جناحين عملاقين يطيران بي إلى ذرى هوى الشهرة والنجاح والتألق، أتذكرك فجأة، فأعود لحجمي البشري. ويلقنني مرضك الأبدي أن نسيج جسدي

سـريع العطب، وأننا مـن التراب وإلـى التراب نعود...

إعاقتك يا صغيري الحبيب هدية تقدمها لنا نحن الأصحاء المقززين بأنانيتنا...

نحن الأصحاء الذين نخجل منك، فنواريك عن أنظار الناس، لأن الأطفال بالنسبة لنا للتباهي، امتداد لأنانا المتغطرس: ابني جميل مثلي، ذكي مثلي، خفيف الظل مثلي، أما حين يكون معاقاً فأسجنه في إعاقته... لكنك لا تبالي بخجلنا منك لأن إعاقتك علمتك نعمة التسامح، حتى حين نشتمك، وتمر بذهننا أفكار قاسية عن رغبتنا باختفائك التام من حياتنا، لا تتأثر ولا تحزن، تظل تنظر لنا بحب منتظراً فتات شفقتنا لنطعمك، ونهدهد أوجاع روحك وجسدك كي تغفو...

فطوري لذيذ... فطورك مسموم بالأدوية مذ كنتَ رضيعاً...

وأنا أعبر الشارع، وأنا أعبر أيامي وسنوات عمري معتقدة أني أحقق انجازات أتخيلك تعبر الحياة كنسمة بالغة العذوبة والرقة لدرجة تخشى أن تقلق راحة أوراق زهرة!

لن تذهب إلى المدرسة، ولن تترفع من صف إلى صف... ولن يكون لك أصدقاء دراسة، ولن تمارس الرياضة، ولن تتذوق الفن... ستبقى أشبه بالمادة الخام التي نسي الصانع بردختها وتطويعها، لكنك في كل لحظة تذكرنا أننا صُنعنا من هذه المادة ذاتها التي شكلت نسيج الحياة، فتذكرنا بماهية جسدنا وروحنا وتلعب دور ملاكنا الحارس الذي يقينا من غواية عشق الذات.

لا تبصر عيناك الجميلتان إلا القليل القليل، غارق في ضباب

عينيك وروحك وعقلك، لكن من قلب هذا الضباب، أتأملك كيف تمد رقبتك النحيلة، مرهفاً سمعك نحو جهة ما غامضة، محركاً عينيك في كل الاتجاهات، فأدرك أنك وحدك من يرى الحقيقة وسط الضباب...

سننجح في إبعادك رويداً رويداً عن دائرة حياتنا... وأنت ستنجح ومن دون أن تعاتبنا، لأنك لا تعرف ما العتب، ومن دون أن تكرهنا، لأنك لا تعرف الكره ومن دون أن تغضب، لأنك لا تعرف الغضب... ستنجح أن تعوّد نفسك كيف تغفو في سرير إعاقتك الأكثر رحمة من سرير الأصحاء.

الصمت

فكرتُ كم صارت أفراحنا صعبة وقصيرة وسطحية، وأنا صاعدة الدرج لاهثة من التعب، أتصبب عرقاً، لكني أحس بالرضا كوني أحضرتُ كل الأوراق اللازمة للحصول على فيزا لزيارة فرنسا، قدّمت الأوراق اللازمة للموظفة في القنصلية الفرنسية، والتي ربطتني بها صداقة أساسها إحساسنا المشترك بالقهر... حكت لي عن معاناتها في عملها وكونها تتحمل غضب المراجعين ونقمتهم حين لا يحصلون على الفيزا كما لو أنها مسؤولة عن رفض طلباتهم...

استقبلتني صديقتي بابتسامة وبادرتني بالقول: يبدو من ابتسامتك انك أحضرتِ كل الأوراق اللازمة، مدّت يدها وتناولت مني الظرف... جلستُ على الكرسي وأنا أعطي وجهي لهواء المكيّف...

طلبت لي فنجان قهوة، وقدمت لي سيجارة، فكرتُ أن فرحي مسكين وساذج ويثير شيئاً من الخجل في نفسي، ياه كم نحن مساكين، كل شيء شاق في هذا البلد الحصول على أبسط ورقة في دوائر الدولة يتطلب شحذ الأعصاب وطلوع الروح... وحين نحصل على طلبنا نحس بفرح شديد...

فجأة دخلت سيدة مفرطة الأناقة، هبّت صديقتي لاستقبالها، وقدّمت لها كرسياً لتجلس، مسحت السيدة الأنيقة الأربعينية وجهي بنظرة ازدراء كما لو أنه لا يليق بها أن تجلس معي! لكنني سارعت بالرد على نظرتها بنظرة احتقار صريحة ورشفت قهوتي بصوتٍ مسموع كي أغيظها... فلوت فمها باشمئزاز وحوّلت نظرها عني، لكن وصلتني للحال رغبتها بإهانتي... وكيف لجمت تلك

الرغبة بصعوبة...

أسرعت صديقتي تطلب لها فنجان قهوة، فرفضت وقالت إن وقتها لا يسمح وأخرجت من حقيبتها الورقة المطلوبة... بسطتها على الطاولة، تنهدت وقالت: عسى الكلاب يعطونني الفيزا الآن... صرخت صديقتي وقد جحظت عيناها حين قرأت كشف الحساب: ممتاز الآن سيعطونك الفيزا بالتأكيد.

رافقت صديقتي السيدة حتى الباب الخارجي، وجدتني أسحب الورقة وأقرأ كشفاً لحسابها، مئة مليون ليرة!

فجأة انتابتني مشاعر أشدّ من الدهشة، إنه الذهول الذي كاد يفقدني صوابي، وحين قرأت اسمها عرفت أنها زوجة اللص الفلاني، أقصد المسؤول الفلاني، الذي سرق أربع شركات، وحوّل للتحقيق سنوات... لكن لم يصدر أي حكم بحقه، فبعد سنوات من التحقيق فرّ إلى فرنسا... ويبدو أن زوجته ستلحق به...

تجسدت أمامي نظرة الازدراء التي خصتني بها، إنها لا تعرفني ومع ذلك ترشقني بنظرة كره واحتقار! ربما لا يمكنها الإحساس بذاتها إلا في إهانة الناس!

عادت صديقتي حدقت بي وقالت: ما بك، وجهك متعكر؟

في الواقع شعرتُ أني منهارة على المقعد وقد نزفتُ كل قوتي، ما إن قرأت رقم مئة مليون ليرة.

سألت صديقتي: من أين يأتي هؤلاء بالمال؟!

ردت بسخرية: عزيزتي، هذا كشف بحسابها في مصرف واحد، فما بالك أنها تملك حساباً سرياً في سويسرا، وآخر في لبنان... أتعرفين البارحة جن جنونها حين رفض طلبها بالحصول على فيزا لزيارة باريس، طلبوا منها كشفاً بحسابها...

كانت تصرخ وتقول: أنا لم يُرفض لي طلب بحياتي كلها... ياه لو سمعت صراخها عبر الهاتف، والله لا تزال طبلة أذني تؤلمني حتى الآن...

لم يكن القهر في قلبي عميقاً وحقيقياً كما في تلك اللحظة، شعرتُ أن الحياة في هذا البلد تعني أن نخسر يوماً بعد يوم، هل ولدنا لنخسر! هذا ما أحسسته تماماً وفهمتُ بومضة، سبب غضبي الدفين الذي يتفجّر بصراخ وسيل من الشتائم الفاحشة لأن الكهرباء انقطعت فجأة، أو لأن نقطة ماء سقطت على رأسي وأنا أسير في الشارع، وأحياناً أشتعل بغضبٍ مجنون لمجرد أن يصطدم كتفي بكتف أحد المارة! بل صارت لغتي أقرب للسباب والشتائم، وانحسرت لحظات استرخائي المصطنع بدندنة بعض الأغاني وأنا أمارس رياضة المشي...

كنت أشعر أن وجودي ينحسر شيئاً فشيئاً إلى قوقعة يتردد في جوفها الخانق دويّ قهري وغضبي... بل صارت تنتابني أحاسيس عجيبة بأنني غير موجودة... ولم أستطع فهم هذا الشعور المؤلم واللا منطقي، أظن أن هذه المشاعر سببها إدراكي اللاواعي لمدى خسائري، وإحباطاتي وإحساسي المستمر بالقهر.

أمسكت الورقة، وحدقت بالرقم مئة مليون ليرة... اشتعلت مئة مليون رغبة في نفسي، رغبات مكبوتة، لم أفعل شيئاً في حياتي سوى كبتها وسحقها، القحبة تملك مئة مليون ليرة، وأنا أملك مئة مليون رغبة مكبوتة، تخيلت إني أصفعها وأسألها من أين لك هذا؟! كنتُ أجد متعة وأنا أنهال على وجهها بصفعات تزداد قوة ووحشية... ياه لولا طاقة خيالنا لمتنا كمداً.

أخرجني صوت صديقتي المتعاطف من خيالاتي الإجرامية، أحسستُ بالخزي لكن ألم أصبح عدوانية رغماً عني! ألم يتحوّل

إحساسنا بوجودنا إلى إحساس مستمر بالمرارة والقهر والضيق...

ألم نقنع أنفسنا أن الأمان الوحيد في هذا البلد هو أن نكون مهمّشين.

بدت لي تلك الحقيقة مرعبة، ويستحيل تبريرها... بدا عمري في هذا البلد أشبه بمرجوحة، أتأرجح دوماً بين الأمل واليأس، وبين اليأس والأمل إلى مالا نهايـة.

عطر السيدة صاحبة المئة مليون ليرة، يخنقني، اعتذرت لصديقتي وأسرعت لأخرج إلى الهواء غير المسموم، لم أبالِ بحرٍّ ولا رطوبة... كنتُ أمشي بخطىً سريعة كهاربة من شيء لا أطيق تحمله... أحدق بوجوه الناس بدهشة واستغراب..

أودّ لو أسألهم كيف تحتملون عيشة الذل... ياه كم بدت تلك الوجوه تنضح بالمرارة وتعصف بها الأزمات النفسية...

فجأة توقفت مصعوقة، إذ بدأ دخان ابيض يتصاعد من الأنوف والآذان للناس حولي، أدخنـة بيضاء تتصاعد إلى أعلى، ياه أنفي وأذني يطلقان الدخـان أيضاً...

مـاذا يعنـي هـذا! ارتفـع الدخـان إلى السـماء ورسـم شـكلاً غامضاً، توضح شيئاً فشيئاً... كتب الدخان رقماً: مئة مليون.

فجأة تكشفت لي الحقيقة، إذ وحده قهرنا الداخلي، واحتراقنا وذلنا يسمح لهؤلاء اللصوص أن يراكموا الملايين...

الـظــل

كانت تنتظر بولَه الحلقة ٤٦٣٠ من المسلسل اليومي الأميركي، الذي تتابعه منذ ثلاث سنوات حريصةً ألا تفوّت حلقة، وما أن تبدأ الموسيقى الخاصة بالمسلسل وأسماء أبطاله المتوهجة بالأحمر، حتى يتهلل قلبها بهجة، وأحياناً تصفق مبتهجة كطفل صغير فوجئ بهدية لم يتوقعها.

كم استفزتها التعليقات الساخرة لأسرتها والمقربين منها حول ولعها بالمسلسل وفي البداية كانت تغضب وتجد نفسها بموقع المتهم المستميت في الدفاع عن نفسه فكانت تشرح لهم الجاذبية الخارقة للقصة، والأداء البديع للممثلين، ثم جمال الأمكنة والطبيعة والمدن والأثاث... أنها تعيش الحياة من خلال هذا المسلسل.

كانت أختها الكبرى أكثر المحيطين بها سخرية من ولعها بالمسلسل، لكنها لم تردّ أبداً على تعليقات أختها الساخرة، بل ترشقها بنظرات باردة لا مبالية كما لو إنها تقول لها بأن أبطال المسلسل أكثر إنسانية منها...

جنّ جنونها حين انقطع التيار الكهربائي، وانفلت لسانها بشتائم فاحشة، وتفجّر الغضب كاسحاً في روحها، بل أحست بكارثة حقيقية، فاليوم ستعترف البطلة لزوجها بان الجنين في أحشائها ليس ابنه بل ابن صديقه الحميم، اللعنة على الكهرباء بل اللعنة على الحياة في هذه المدينة الميتة.

انهارت على الأريكة بعد عاصفة غضبها، منهكة، خائبة الأمل، وعاد الفراغ يطبق عليها ككفكي كماشة، أغمضت عينيها محاولة تخيّل كيف ستسير أحداث المسلسل، ترى ماذا سيكون رد فعل الزوج حين ستعترف له زوجته أنها حامل من صديقه؟! وهل ستطرد جاكي من عملها لأنها رفضت أن تصير عشيقة لرب عملها؟!

لن يفهم أحد ولعها بهذا المسلسل الذي تحس أنها تعيش أيامها بانتظاره، إنه النور الذي يضيء يومها، والنكهة التي تعطي طعماً لأيامها الباهتة.

إنه الوحيد القادر على تلطيف وحدتها، وجعل ساعات يومها الفارغة أقل وطأة...

ثلاث سنوات وهي تنتظر الوجوه الأليفة المحببة، يُشعرونها أنها صديقة حميمة وهم يطلعونها على أدق تفاصيل حياتهم ومشاعرهم وأفكارهم، إنها تعبد مايكل الشاب العصامي الجميل الذي حافظ على نقاء روحه رغم الفساد حوله، وتحب بريجيت رغم علاقاتها العاطفية المتعددة، تحسدها على حياتها الغنية، فهي لا تيأس ولا تكتئب، بل تلملم حطام حب قديم، لتشيد منه صرح حبٍ جديد...

في الواقع تحس بشخصيات هذا المسلسل كبشر حقيقيين ينتظرونها بدورهم يدعمونها بقوة خفية، ويساندونها في تحمل قحط عيش كئيب وخال من أية بهجة أو فرح، إنهم حقيقيون أكثر من هؤلاء الذين تعيش معهم تحت سقف واحد.

كل من حولها يشعرها أنها وجدت لتتصهر معهم، لتخدمهم دون أن يشكروها أو يشعروها بتقديرهم لجهودها اليومية في خدمتهم...

أية عواطف أسرية مزيفة هذه...

لو حاولت تخيل صورة لحياتها مع أسرتها لعكس خيالها صورة صمت سحيق وداء الخرس، ونظرات باردة، وضمور في المشاعر، وحديث سطحي تافه يزداد تقلصاً وضموراً مع الزمن.

تمر أيام دون أن تفتقدها أختها الكبرى المتزوجة، ثم تتصل بها فجأة، تسألها على عجل كيف حالك، ولا تنتظر كي تسمع جوابها، بل تطلب منها بما يشبه الأمر أن تأتي لحراسة أولادها، لأنها مدعوة إلى عرس أو مناسبة اجتماعية هامة عليها أن تحضرها مع زوجها.

كم مرة رغبت أن تسأل أختها: هل تحبينني حقاً؟ لكنها لم تجد الشجاعة لطرح هذا السؤال... لعلها تعرف أن أختها سترد بآلية: طبعاً أحبك...

ستقول لها والدموع تطفح من عينيها: كيف تحبينني وأنا أظل متألمة منك!!

لم يكن ولعها بهذا المسلسل سوى تعويض عن فقر الحياة في مدينة تفننت بقهرها وإطفاء حيوية روحها، تفتح عينيها كل صباح فترى نهارها مسكوناً بفقاعة فراغ كبيرة، تشعر أن الفراغ يطبق على صدرها، تراه في السقف وفي الستائر. تراه في لباسها، وكيف صارت تهمل أناقتها، وصارت تلبس كيفما اتفق دون أن يهمها انسجام الألوان... يومها يشبه فخاً يتربص بها، تسقط في شرك ساعات الفراغ تسحقها.

يحلو لها أن تصف مدينتها بأنها مقبرة، كم من المرات بكت من الضجر والفراغ! ماذا تفعل، تقرأ وتقرأ، ثم تمشي ليس حباً بالمشي بل

لقتل الوقت، تتسكع في شوارع وأزقة تفوح منها رائحة القمامة.

لا مسرح، لا سينما، لا حديقة تلجأ إليها... مدينة تفننت في إذلال روحها.

تعيش في هذه المقبرة مع إحساس دائم بأنها جريحة الروح، تبحث عن رفقة وعزاء لا تجدهما أبداً، ولولا هذا المسلسل لصارت حياتها بحيرة راكدة آسنة.

ياه كم تشعر بحيوية وهي تتابع بعينين لا ترمشان مشاهد هذا المسلسل، تشتاق لأبطاله كأصدقاء حقيقيين، ياه كم تبدو الحياة مدهشة وغنية على الشاشة، يرتعش قلبها بوهج الحب الذي يلتمع في عيون الممثلين، وتتخطف أنفاسها مبهورة وهي تتأمل الحدائق والمطاعم، والبيوت الرائعة والطبيعة الخلابة...

تفكر كم أن حياتها باهتة وفارغة مقارنة مع حياة هؤلاء الممثلين... تحسدهم على تجاربهم الحياتية، وعلى أسفارهم. أنها لم تعبر حدود مدينتها أبداً، لا تعرف كيف يكون إقلاع طائرة، ولا الحركة المتهادية للقطار... لا تعرف سوى ذل المواصلات اليومية حيث تختنق من رائحة الأجساد القذرة، وتتكمش من اللمسات الوقحة.

هل تنسى الحفل الرائع الذي أقامه والد بريجيت حين نجا ابنه من الموت؟ طوال أربع حلقات تابعت بالتفصيل الحلقة البديعة التي تمت في قصر فخم لدرجة شعرت أنها مدعوة حقاً لهذا الحفل... وكانت من وقت لآخر تتنهد حسرة إذ أنها لم تحضر سوى حفلات أعراس زميلاتها، حفلات نسائية بحتة كانت تصيبها كل مرة بنوبة اكتئاب حادة.

لتعترف أن هذا المسلسل وحده يُشعرها بشيء من غنى في حياتها، بل صارت تخشى أن ينتهي، تحس بفزع حين تتخيل أن يومها خال من انتظارها الجميل والمثير لأحداث متجددة دوماً...

أحست بالخجل حين بدأت تحلم بمايكل، الممثل الجميل الشهم، وصارت تتخيل رغماً عنها أنها تقبله وتغازله، وبأنه سيفض عذريتها البغيضة، في البداية وبخّت نفسها واحتقرت خيالاتها، كانت مولعة بالسخرية من نفسها، تخاطب روحها: لا ينقص العانس في الأربعين إلا أن تعشق ممثلاً وتتخيل أنها تضاجعه...

لكن هذه الخيالات العاطفية نبهتها لفظاعة ولا إنسانية الحرمان العاطفي المزمن الذي تعيشه، ما أحلامها سوى دليل على فقر الحياة في هذه المدينة.

ياه كم أن فقر الحياة هو مصدر حزن يومي... لقد فهمت سر هذا الحزن اللطيف والمستمر الذي يسربلها كوشاح.

هذه المدينة المقبرة فنانة في قتل الروح، أنها بالكاد تسمح للجسد أن يستمر حياً، يحلو لها أن تقول: إنهم يعلفوننا كي نبقى أحياء، فحين تأكل طعامها كل يوم وحيدة وغالباً واقفة تتخيل دوماً حيواناً يأكل، وتتماهى صورتها مع صورة الحيوان.

إنها لا تتفرج على المسلسل بحالة استرخاء، بل بحالة تحفز، بحالة نهم وهي لا تنظر إلى الوجوه، بل تحدق بها، تلتهمها بعينيها، تخزّن صوتها، وتردد عباراتها... لتعترف أن لغتها الإنكليزية تطورت بشكل كبير بفضل هذا المسلسل.

إن هذا المسلسل يسمح لها أن تعيش وجودها وحريتها نصف ساعة

كل يوم عن طريق تماهيها مع شخوصه وأحداثه، إنها ظلٌ لأبطاله، تتبعهم تسافر معهم تشاركهم كل شيء حتى اللحظات الحميمة في الفراش!

أحست بالضياع بسبب انقطاع الكهرباء، تذكرت فجأة المصيبة التي لحقت بها العام الماضي، إذ فجأة توقف بث المسلسل طوال شهر رمضان، اختنقت روحها بألم عقيم، وأحست بفراغ موحش وحياتها تخلو من وجوه تعبدها، وحين عاد بث المسلسل جنت من الفرح. يومها بكت وهي تقترب من الشاشة تمسح الوجوه الحبيبة بحنان وتقبلها، عاتبتهم على غيابهم ورجتهم أن يستمروا لأنها تعيش حياتها من خلالهم، لأن قدرها أن تكون الظل.

القحبة

التقيتها للمرة الأولى في إسعاف المستشفى فاقدة للوعي إثر محاولة انتحار فاشلة. بدت كملاك نائم رغم شحوبها الشديد وعينيها العسليتين نصف المغمضتين وشعرها الأشقر الطويل المتناثر على الوسادة... جمالها الملائكي أسر كل من حولها صرخت إحدى الممرضات يا الهي، كيف تستطيع شابة فاتنة مثلها أن تحاول الانتحار!

تم إنقاذها، غسلوا معدتها من الدواء المنوم الذي ابتلعته بكمية كبيرة، وأعطوها دواءً رافعاً للضغط، وطلبوا من أهلها أن تبقى عدة أيام في المستشفى للمراقبة... طوال الوقت كنت أنقل نظري بين الملاك الغارق في الغيبوبة وبين شاب جميل بجانبها لا يتوقف عن ذرف الدموع وهو يبرطم بكلمات هامسة.

دفعني فضولي لأسأل من يكون، اخبرني الطبيب الذي أسعفها أنه خطيبها.

أسرتني هذه القصة، ووجدتُ نفسي معنية إلى حدٍ كبير بمحاولة الشابة لإنهاء حياتها، ترى ما الذي يدفع الشباب للانتحار؟! ألا يقدرون نعمة الصبا والصحة؟ رجوت صديقي الطبيب الذي أسعفها أن يسمح لي بمتابعتها، ضحك قائلاً: أعرف فضولك، دوماً تستقطبك قصص النساء التعيسات.

قلتُ: الأمر أكبر من فضول.

تساءل: ما هو إذاً؟

خانتني اللغة، لم اعرف كيف أصوغ عبارتي، ربما لأني لم أكن متأكدة تماماً من حقيقة دوافعي تجاه هذه الصبية التي اختارت الموت وفضلته على الحياة.

حين دخلت غرفتها صباح اليوم التالي لانتحارها متسلحة بجهاز لقياس الضغط صدمتني رائحة ورود حمراء بديعة، تذيع في الجو عطر حب ملتهب... باقة عملاقة من الورد المخملي الأحمر، وقد عُلق بغصن إحداها بطاقة صغيرة بيضاء كتب عليها: أحبك.

كانت الصبية تحاول مغادرة فراشها بتثاقل قاصدة الحمام، لكنها مرتبكة بإبرة السيروم المعلقة بوريدها، بدا في عينيها العسليتين إعياء كبير، كما لو أن كل تعب روحها يفيض من نظرتها، أمسكتُ يدها، وأنا أقول لها بصوتٍ اجتهدتُ أن يكون مَرحاً دافئاً: الحمد لله على سلامتك.

قالت بصوتٍ رخو: أرجوك، خلصيني من هذه الإبرة المعلقة بوريدي، إنها تزعجني. ربّتُ على خدها بحنان وقلت: عليك أن تصبري اليوم فقط، وغداً سأنزعها لك.

قالت: أحس بعطش شديد، هل يمكنني أن أشرب؟

قدّمت لها كأساً من الماء، ولم أجد أفضل من الورود الحمراء لأبدأ حديثي معها.

قلتُ لها: ورود رائعة، هل لي أن اعرف...

قبل أن أكمل سؤالي، ردت بنزق: إنها من خطيبي.

سألتها: أظنه الشاب الذي كان برفقتك البارحة، والذي لم

يتوقف عن البكاء لحظة.

تنهدت بنفاذ صبر ومسحت وجهها مراراً بيدها الحرة من إبرة السيروم، كما لو إنها تتأكد أنها نجت حقاً من الموت، ثم حدقت مباشرة في عيني كما لو أنها تراني للمرة الأولى وقالت: أرجوك أن تخرجي باقة الورد من الغرفة، رائحتها النفاذة تكاد تخنقني.

أذعنت لطلبها، وجدتني أمسك الفرشاة وأسرّح شعرها الطويل، وأُعلمها أنني الطبيبة التي ستراقبها لأيام، لم أتوقع أنها ستكشف سرها لي بتلك البساطة، ولا أظنها باحت بمأساتها لأنها وثقت بي، بل لأنها بحاجة أن تتحرر من أثقال روحها... جلسنا متقابلتين نستمع لموسيقى رومانسية، وتدفق الحديث بيننا كصديقتين قديمتين. عرفتُ أنها مهندسة متخرجة حديثاً من كلية الهندسة المدنية، والدها تاجر فاحش الثراء، وبأنها على علاقة حب مع شاب يكبرها بثلاث سنوات، مهندس أيضاً، لكنه من أسرة فقيرة ومن دين مختلف، وأن والدها يعارض بشدة علاقتها مع الشاب الذي تعبده، وأجبرها على الخطبة من شاب ثري.

فجأة توقفت عن الكلام، وابتسمت كأنها تسترجع ذكرى محببة، بدت كأنها تجمّع روحها في بؤرة واحدة، تنهدت وهي تقول لي هامسة: ياه كم أحبه، أعبده عبادة.

عجبتُ كيف يغيّر الحب ملامحنا، كانت نظرتها نظرة امرأة متيمة حباً.

سألتها: ألم تجدي حلاً لمشكلتك سوى التفكير بالانتحار.

قالت: لقد أنهكني الصراع، ثلاث سنوات وأنا أتمزق بين حبي

لحبيبي، وخوفي من أبي الذي يتهمني بالانحلال والعصيان، ويحملني مسؤوليتي تجاه أختيّ اللتين تصغراني، وبأني سأكون السبب في عدم تقدم العرسان لهما، إذا فررتُ مع حبيبي.

كم هو غريب سلطان الصوت أحياناً، ظلّ صوت الشابة يطنّ في أذني لأيام وعجبتُ من قدرتها الخارقة على إيصال معاناتها بكلمات بسيطة، وحين غادرت المستشفى وخطيبها يتأبط ذراعها ويتأملها بوَله، بدا جسدها النحيل المتناسق كأنه خيال، ورغم تأثري بقصتها فإن فجوة من عدم التصديق بقيت محدّقة بي كنظرة متشككة. ترى لماذا لم تهرب مع حبيبها؟ أعرف شابات أصغر منها، امتلكن الجرأة، تحدين أهلهن وفررن مع الرجل الذي اخترنه.

فاجأتني بزيارتها بعد أيام من خروجها من المشفى، تحمل لي هدية، قدمتها بكثير من المودة والمحبة، شكرتها وقلت لا داعي للهدية، فقالت: ياه، لن أنسى دعمك لي مدى حياتي.

بدت في أحسن حالاتها، بلباسها الأنيق، ووجهها النضر وقد توردت وجنتاها وماكياجها الذي أبرز جمال عينيها، وسحر ابتسامتها، غاص قلبي من الألم وأنا أفكر أنه كان يمكن أن تموت لو لم تسعف بسرعة.

سألتها بلهفة عن أخبارها، كما لو أني توقعت تطورات هامة قد حدثت معها لكنها هزّت كتفيها بلا مبالاة، وقالت: لا جديد، مازلت متيمة بالرجل الذي أعبده ولا أطيق خطيبي.

قلت وأنا أستفظع ما أسمع: اسمعي هذا الوضع غير مقبول، يجب أن تجدي حلاً. على الأقل صارحي خطيبك المسكين أنك متيمة بآخر.

ضحكت وقالت: إنه يعرف، يعرف كل شيء.

بحلقت بها مذهولة: ويقبل؟!

- أجل، لأنه يعبدني، ولأنه يأمل أن أحبه ذات يوم.

- عجباً، أين كرامته؟ لكن أنتِ عامليه باحترام على الأقل، افسخي خطوبتك منه.

- لا أستطيع، أنتِ لا تعرفين أبي، إنه وحش، وحش بلا مبالغة وهو يجد خطيبي عريساً ممتازاً، شاب في الخامسة والعشرين، وحيد لأهله، فاحش الثراء يملك معرض سيارات، ومعملاً للرخام... ياه يستحيل أن يفرّط به.

سألتها بسخرية: لكن يبدو أنك معجبة بهذا الخطيب مثل أبيك...

شهقت مستنكرة: أنا، أعوذ بالله، أنا لا أطيقه.

تكررت زياراتها لي في المستشفى، ثم صارت تستأذنني لتتصل بحبيبها من هاتفي الخاص في المشفى، مدعية أن والدها يراقب هاتفها... كنتُ أسمعها تبث الرجل الغامض لواعج الحب، ولا تمل كل مرة من ترداد عبارة أنها مظلومة.

فهمتُ أنها مصرّة على شخصية الضحية التي لا حول لها ولا قوة، كان يمكن أن أظل مخدوعة بها لوقت طويل، لولا تلك الصدفة الغريبة، فأنا نادراً ما أقصد مسبحاً لكني اضطررت للذهاب مع صديقتي وأولادها، كنتُ جالسة على الرمل مسترخية حين لمحتُ عرضاً: عاشقين يتبادلان القبل فوق فرشة سباحة في وسط البحر، هوى قلبي، أيُعقل أن تكون هي، صديقتي الصغيرة التي حاولت الانتحار.

انتفضتُ واقتحمت الماء وأخذت أسبح باتجاهها بقوة، وناديتها بصوت مرتفع فالتفتت نحوي وهي تتظاهر بسعادتها بتلك المصادفة، لكن وجهها كان يقطر سماً أحسستُ بورطتها بل ارتعش جسدي من إحساس مؤكد تقمصني بأنها تتمنى لو تخنقني...

سألتها وأنا أبتسم بشماتة: أهو الخطيب المُتيمّ؟

قال: مَرحباً دكتورة، اعذريني الآن عرفتك.

مساء اليوم ذاته زارتني في المستشفى، لم أخفِ عنها إحساسي بالاشمئزاز والقرف مما رأيت، أدركتُ أنها تخدع الجميع، وأنها تتسلى بكل من حولها، وتغير شخصيتها طوال الوقت، إنها في الحقيقة لا ترغب أن تتخذ موقفاً، لا تريد التفريط بعريس لقطة، يملك المال الوفير... وفي الوقت ذاته تريد الآخر، عشيقاً، رجلاً يشبع رغباتها ونزواتها... لكنها غير مستعدة أن تكافح معه وتعيش عيشة متقشفة.

حدقت بي وقالت: أرجوك لا تسيئي فهمي...

قاطعتها بنزق: لقد رأيتكما تتبادلان القبل و...

- رغماً عني، رغماً عني، ياه كم أحس بغثيان حين يقبلني، أقرف منه، وحين أدخل بيتي أدعك جسدي بقوة بالليفة والصابون، كي أطرد رائحته.

لا ادري لِمَ رغبتُ بتحديها بطريقة ما، عرضتُ عليها أن تلتقي حبيبها في غرفتي الخاصة في المشفى، قفزت من السعادة، وسارعت للاتصال به...

وجدتني بعد دقائق في حضرة شاب يشع النبل من عينيه، لكن

الحزن يرشح من صوته وملامحه، ارتمت بين ذراعيه، وأشبعت وجهه ويديه بقبلات نهمة.

استأذنت لأحضر القهوة من كافتيريا المستشفى، ولم استحِ حين وقفت خلف الباب أسترق السمع... كان يتلعثم من فرط الغضب وهو يحاول ألا يصرخ من الغيظ: اسمعي، لم أعد أحتمل هذه المهزلة...

تقاطعه وهي تتوسل إليه: أرجوك اصبر قليلاً...

- اصبر، لقد صبرتُ سنة، سنة كاملة، وأنا أراك بجانبه في السيارة، وفي المطاعم وفي الطريق، والله أعلم ما مدى علاقتك معه...

- أرجوك صدقني، لا أسمح له بلمسي... أنا أعبدك أعبدك....

- كفى، ما عدتُ قادراً على تحمّل نفاقك...

أرهف السمع أكثر، فأسمع شهقات دموع، ثم حفيف قبلات.

عرفتُ أنها ابنة أسرة حديثة الثراء، وأن والدها كان سائق شاحنة، ثم عمل بالتهريب، ويقال أنه هرّب شحنة كبيرة من المخدرات وأثرى.... ثم صار يتاجر بالسيارات المستعملة، وأن ولعه كان بالتقرب من الأسر العريقة يولم لهم العزائم كي يصطاد لبناته الأربعة عرساناً.

انقطعت عن زيارتي لأشهر، ثم فاجأتني ذات يوم بزيارتها وهي بكامل أناقتها وقد أثقلت عنقها بالذهب، قدمت لي بطاقة عرسها، وقالت: اسمعي يجب أن تعملي جهدك لتحضري حفل زفافي سوف يحيه ثلاثة مطربين وأربع راقصات، وهناك أكثر من ستمئة مدعو.

هززت رأسي وأنا أقول: ألف مبروك.

لم أسالها عن الحبيب المطعون بحربة الغدر... لكنها قالت لي: لا

يتسع وقتي لأحكي لك كم أن الرجل الذي أحببته سافل ومنحط...

طبطبت على كتفها وقلتُ: لا داعي للتحدث عنه...

أصرت: لكنه حقير وسافل، وأنا لستُ نادمة على انفصالي عنه سأحكي لك التفاصيل فيما بعد...

لم أحضر زفافها، لكن ضجت المدينة بفضيحة غريبة، حين دخل شاب مجهول صالة الأفراح يحمل باقة ورد عملاقة مغطاة بوشاح واقترب من العروس ونزع الغطاء عن الورد.

كانت وروداً ملونة متراصة ترسم كلمة ملونة... القحبة.

كيف اختفى الشاب بلمح البصر... مَن هو، ولمَ كان يلبس نظارة سوداء؟

لن ينسى الناس أبداً باقة الورد المهداة لعروس قحبة.

إلى مهى قبطي

يعطينا الغياب نعمة النقاء، هذا ما اكتشفته وأنا أعي يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، كيف أن غياب مهى يجعلها نقية نقاءً لا شائبة فيه. التقينا منذ عامين في مكتبة الإسكندرية لحضور مؤتمر عن حق المرأة في السكن، ورغم البرنامج المكثف للمؤتمر وكثرة المشاركين فيه من دول مختلفة، فقد استوقفتني مهى التي وصلت متأخرة يومين عن بداية المؤتمر، إذ اضطرت أن تنتظر يومين في مطار تل أبيب حتى سمح لها العدو الإسرائيلي أن تغادر بعد أن دفعت الضريبة المعتادة من الذل.

رغم الإعياء الذي تتضح به قسمات وجهها الأسمر النحيل، فإنها ألقت محاضرتها بحيوية ودقة أسرت الجميع، كانت تعرض صوراً لخمس وأربعين قرية غير معترف بها، وكيف تضطر الفتيات في تلك القرى إلى قطع دراستهن بسبب بُعد المدارس.

شعرتُ أني أعرف مهى منذ سنوات، وأن عُمق تأثري بكلامها ناجم عن إحساس عميق كاشف بتلك الإنسانة المعذبة بمسألة الكرامة مثلي، وفيما كانت تلقي محاضرتها شعرتُ أني اقرأ روح مهى وأتفرّج على حياتها، قدّرتُ أننا في عمر واحد، ربما يجمعنا ذلك الحزن اللطيف الذي يشف من وجهينا.

في اليوم ذاته قدّمت محاضرتي، عن الظروف العامة والخاصة التي دفعتني للكتابة وكيف أن هؤلاء المهمّشين الذين أعبّر عنهم

بقصصي يعطونني نعمة أن أشعر بقيمتي وكرامتي المُنتهكة في محيط الفساد الذي أعيش فيه.

ومن بين كل العيون المحّدقة بي، كنتُ ألمح عيني مهى المتعبتين، وفي نظرتها السارحة - كأنها تتجاوزني - رأيت كل الآمال والآلام التي عاشتها، كانت مهى مرآة روحي، وأنا مرآة روحها، اكتشفنا تلك الحقيقة قبل أن نتبادل كلمة واحدة!

تصافحنا - مهى وأنا - بحرارة وود، كصديقتين قديمتين التقيتا بعد غياب طويل كان الوقت حراً في المساء، وجدتني اقترح على مهى أن نقصد مطعماً صغيراً يقدم أسماكاً فقط... ولم يُغونا المشاركون في المؤتمر بالسهر في فندق سان استيفانو وحضور حفل موسيقي.

كان المطعم خالياً، كما لو أنه مُعدّ خصيصاً لنا، جلسنا متواجهتين، متنبهتين إلى عمق التعاطف بيننا، فكرت أن أروع صفة إنسانية هي التعاطف.

وبحذر خفي تأملت كلٌ منا ملامح الأخرى، كما لو أننا ننقب عن عمق التشابه بيننا، ليس التشابه في الشكل بل في الروح والتجربة الحياتية.

كنتُ أشعر حين أنظر في عيني مهى، كما لو أني اقرأ كتاباً... أقرأ معاناتها في فلسطين تحت ظل احتلال وحشي... كانت تربي أولاد أخيها الشهيد خاصة بعد إصابة أمهم بمرض عصبي جعلها شبه مشلولة... حدثتني عن حياتها في القدس عن الخطر اليومي والتحدي اليومي.

سألتني عن حياتي في اللاذقية، حكيت لها كيف أن هذه المدينة

الفقيرة والمنتهكة أصابت روحي باليباس والقحط، ولولا الكتب وعنادي والكتابة لغرقت في كآبة مستديمة.

وقف النادل بجوارنا مستعداً لتلقي طلباتنا، طلبتُ سمكاً مشوياً، وطلبت مهى سمكاً مقلياً... ضحكنا في الوقت ذاته، وتفوهنا بالعبارة ذاتها:

- يبدو أننا لا نختلف إلا بأكل السمك؟!

ورغم بساطة العبارة، إلا أن التزامن الدقيق في قولها، دفع الدموع إلى عيوننا.

أشعلت مهى سيجارة، ونفثت الدخان كما لو أنها تطلق دفعة من بخار همومها المحبوسة في صدرها، بدت وكأنها تحدث نفسها قالت لي:

- أتعرفين صرتُ حذرة من الأحلام، ربما يجب أن نكف عن الحلم.

- قلتُ لها: معك حق... لكن هذا لا يعني أن نستسلم.

صفقت مهى للنادل، وطلبت أن يحضر لنا بيرة، قال إنه لا توجد بيرة حقيقية إنما بيرة بدون كحول.

غضبت وقالت: يا للتخلف...

متقابلتين في مطعم بحري صغير، تدفق الحديث بيننا عذباً، سلساً... لا أذكر المواضيع التي تحدثنا بها، لكني شعرتُ أن الكلمات كانت تتساقط مثل الندى فوق ندوب جراح روحنا اليابسة، فتمسحها كالطيب وتشفيها...

كنا نسخر من خيباتنا بالتناوب، ونضحك مباغتتين حين تنفلت

منّا الكلمات نفسها... أي تخاطر عجيب بيني وبين مهى.

فكرتُ أني لن أستطيع زيارة مهى في القدس، ولن تتمكن من زيارتي في اللاذقية، ومع ذلك تبادلنا العناوين.

عدنا إلى الفندق، سألتني إن كنتُ راغبة بالنوم، قلتُ لا، همست تعالي ثمة مقهى ظريف يقدم النبيذ، غير بعيد عن الفندق.

كان المقهى ساحراً ببساطته ملاصقاً للبحر، لدرجة نشعر بالرذاذ المنعش على وجهينا، طلبنا زجاجة نبيذ أحمر، وفجّر صوت أم كلثوم أشجاناً غافية في أعماقنا... هل بكت مهى؟ أم أن دخان السجائر جعل عينيها تدمعان... لكن كيف أصف الحزن المنبعث من عينيها، له قدرة غريبة على التأثير، كانت مرهفة لدرجة أنَّ آهاً منطلقة من حنجرة أم كلثوم جعلتها تترنح من التأثر، ودفعت الدموع إلى عينيها...

ربتُ على يدها وقلت: كلنا في الهوا سوا.

هزّت رأسها موافقة قالت: يجب أن نحارب حتى لو كانت القضية خاسرة.

كانت كل كلمة من كلماتها تزخر بانفعال قوي وتأثر عميق، وبدت حياتنا خلفنا كتاريخ مشترك يوحدنا.

شربنا زجاجة النبيذ، فسرى خدرٌ لذيذ في أطرافنا، وبدت الحياة أقل قسوة.

شاركنا البحر السهر، وحفظ في قاعه كلامنا، كلامنا الذي لو لم يمتصه البحر لانتهينا إلى السجن.

لم ننتبه أن الفجر بدأ يتسلل إلا من النور الأزرق الشاحب

الذي لوّن خط المدى...

نظرت مهى في ساعتها وشهقت معتذرة مني: ياه، كم أنا قليلة الذوق فأنت ستسافرين صباحاً... أما أنا فلن أسافر حتى الغد...

ضحكت: لا تتأسفي، فأمامي هناك الوقت الطويل للنوم والضجر.

قالت: لكن يجب أن تنامي قليلاً...

اختلج صوتي، أطرقت مُحرجة من الدموع التي باغتتني قلتُ لها:

- قد لا نلتقي مرة ثانية.

قالت محاولة مؤاساتي: من يدري؟

بدت لحظة الفراق طويلة ومربكة، كل منا تبحث عن طريقة لتخفيف حزن الفراق وجدتني فجأة أركض باتجاه عامل التنظيفات الوحيد، أرجو أن يلتقط لي عدة صور مع صديقتي، أعطيته الكاميرا، وأسرعت أتأبط ذراع مهى قلتُ لها بمرح مصطنع: هيا استعدي، سأرسل لك هذه الصور بالانترنيت.

وقفنا نبتسم للمجهول، خلفنا بحر حنون، وفجر ناعس، وفي اللحظة ذاتها صرخنا نخاطب عامل التنظيفات... اجعل الصور جميلة مثلنا...

ضحكنا بصوتٍ مرتفع، فيما دموع تترقرق في عينينا.

كانت الصور بديعة حقاً، كاميرا تصور الروح... لكني لم أستطع إرسال الصور لمهى، لأن الانترنيت مُراقب.

تحت مظلة الحرب على لبنان

(تموز ٢٠٠٦)

صرتُ أعيش بلا ذاكرة، نشب حريق في داخلي أحرق كل الوجوه والذكريات. لا يطفو وجه في أعماقي المعتمة، ورغم تتابع أيامي لكني أشعر أن الزمن توقف عند الذروة، ذروة الألم، حيث المشهد أفظع من أن استوعبه.

وحيدة كقربة مثقوبة، أضع صينية طعامي أمام شاشة الدمار، ابتلع لقمة إثر لقمة وعيناي تتابعان القتلى والجرحى، وأذناي مثقوبتان بدوي الرصاص والأصوات المُنمّقة للمذيعين، يبدؤون عباراتهم بقُتِل وجُرِح، أفكر بالأفعال المبنية للمجهول، أحاول أن أحرّض شعوراً ما في نفسي، أن أشمئز من بلادتي، كيف أبتلع طعامي وهؤلاء يشرّدون، ويقصفون ويعطبون، وتتهدم بيوتهم فوقهم، وقد يبقون أحياء تحت الأنقاض، كجرذان في مصيدة.

لكني لا أحرّك ساكناً، أبتلع الطعام وأرشف القهوة، آكل ليس لأني جائعة، وأتوقف عن الأكل ليس لأني شبعت، أحس أني مجرد آلة.

أمارس فعاليات يومي بلا ذاكرة ولا إحساس، أنسى أني لم أتفوه بكلمة منذ أيام، ربما من حسن حظي أني لا أعرف إلى أي حد أنا منهارة أو مصعوقة.

أحوم بين أربعة جدران، أو أتسكع في الشوارع، لا فرق، إذ لا